بين ذكاء الانسان والحيوان

بقلم الاستاذ أحمد فؤاد الاهوانى
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

من الظواهر النفسية العسيرة الادراك ، والتى كثر الجدل حولها، بل كان ولا يزال من الصعب الاتفاق على معناها وحدودها : الذكاء ؛ ودليلنا على هذه الصعوبة هو قلة من تكلم فى هذا الباب من القدماء ، وإذا تكلم أحدهم فان رأيه اليوم بعيد عن الاعتداد به كل البعد ، وهذا بعكس بعض الظواهر الأخرى التى تناولها الفلاسفة من قديم: كالعادة، والذاكرة وتداعى المعانى ...الخ، وما زلنا نأخذ بوجهة نظرهم فيها مع شىء من التعديل كثير أو قليل، وقد تعجب إذا علمت أن أول من تكلم فى الذكاء بصفة علمية هو (بينيه) BINET ؛ وعهد بينيه ليس عنا ببعيد، بل نستطيع أن نعتبره معاصراً لنا؛ ذلك أن التفرقة بين الناس من حيث الذكاء، أى أن هذا ذكى وهذا غبى، هى تفرقة نسبية ، فأنت تحكم على (قيمة) عملياته العقلية ، وقيم الأشياء تختلف حسب وجهات النظر، بل أكثر من ذلك لا نستطيع أن نخضع الأشياء من حيث قيمها إلى قانون على أو قاعدة صحيحة . من هنا كان من الصعب ومن العسير تحديد الذكاء ومعناه ، ومن هنا كان من الصعب إلى حد ما، قياس الذكاء واختلاف العلماء فى طرق هذا القياس، لأنك لا تستطيع أن تقيس شيئاً إلا إذا عرفته ، واتفقت مع العلماء على مدى معناه ؛ ومع ما فى هذا من الصعوبة كما رأيت، سنبدأ بتعريف الذكاء إذ لا مندوحة لنا من ذلك ، وستجد هذا التعريف متعدد النواحى ، هو خلاصة آراء كثير من العلماء والمدارس ، كل واحد على حدة ناقص بنفسه ، ولكنها فى مجموعها صحيحة إلى حد ما : فالذكاء هو مظهر الآلة العقلية ، هو القدرة على أداء الأعمال أداء صحيحاً ، هو الوصول إلى نتائج حسنة، هو حل المشكلات عملية كانت أم نظرية .

من هذه التعاريف المتعددة نستطيع أن نختزلها فى رأيين : الأول أن الذكاء هو مجموع العمليات العقلية أو هو جماع هذه الآلات، وهذا هو رأى بينيه، لأنه إذ أراد أن يقيس الذكاء قاس هذه العمليات العقلية، مبتدئاً بأدناها إلى أرقاها ، مبتدئا بالاحساس خصوصاً عند الأطفال الصغار، ثم الادراك الحسى، والتذكر، والتخيل، والتفكير، والاستدلال، والفهم. والرأى الثانى أن الذكاء هو التصرف ، أو هو حل مشكلة من المشكلات ، وبمعنى آخر لا ذكاء إلا فى العمل وفى النتيجة، وهذا رأى حديث نستطيع القول بأنه نتيجة الفلسفة العملية التى سادت أمريكا، والتى يسمونها برجماتزم PRAGMATISM ، أما قياس الشىء بنتيجته فمعروف، ولكن فى مجال

آخر غير مجال علم النفس ، فى ميدان الاخلاق ؛ قال ابن ربيع فى كتابه سلوك المالك (١) «فأول نعمة أنعمها الله على الأعجم والفصيح حياة الروح، لأن بالحياة يذوق اللذات، وينال الشهوات، وهى نعمة عامة على جميع الحيوان ليست خاصة للانسان ، لكن النعمة التى بها مخصوص العقل (٢) وبه حصل له النبل، وبقوته ملك الحيوان وقهر، وساس الأشياء ودبر . والأخص منه العلم وهو نتيجة العقل، وبه التفاضل بمقدار النقص والفضل ، وبحسب الطلب والحث، وبقدر الفحص والبحث ، وغاية ما خلق له وطلب منه العمل ، وهو الذى أجرى إليه وأثيب عليه.. ولا حياة بالحقيقة لمن لا روح له ، ولا عقل لمن لا حياة له، ولا علم لمن لا عقل له ... وقد سبق القول أن الذى خلق له الانسان وأريد منه هو العلم والعمل » .

بهذا التعريف الثانى الذى فصله العلماء المحدثون تفصيلا حسناً ، نستطيع التفرقة بين ذكاء الحيوان والانسان ، إن كان للحيوان ذكاء ؛ وقد فطن القدماء إلى مثل هذا، ولو أنهم يخلطون حديثهم بالمسائل الدينية ؛ فقد قال ابن مسكوية (٣) «ثم لا تزال هذه الأحوال تتزايد فى الحيوان حتى يقرب من أفق الانسان ... كالقردة وما أشبهها ، ويبلغ من ذكائها أن تكفى فى التأدب بأن ترى الانسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الانسان إلى تعب ورياضة لها، وهذه غاية أفق الحيوان التى إن تجاوزها وقبل زيادة يسيرة خرج بها من أفقه وصار فى أفق الانسان الذى يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها والصور التى تلائمها».

ولا نريد أن نعرض لرأى ابن مسكويه طويلا فرأيه فى الذكاء بالمعنى الذى نريده وهو ما يرادف الكلمة الأجنبية INTELLIGENCE ظاهر الخطأ ، إذ محاكاة القردة أو أى حيوان آخر أو الانسان نفسه إذا حاكى غيره لا يعد كل هذا ذكاء، وإنما هو شىء آخر ليس مجال بحثنا اليوم ؛ ولكن ما أريد أن أقف عنده فى رأيه مسألتان : الأولى تقسيمه العمليات العقلية إلى آفاق ؛ فهناك الأفق الحيوانى، ثم الأفق الانسانى، وهى فكرة فى مجموعها صحيحة ولكنه لا يفصلها التفصيل الكافى ، وهذا الأفق الحيوانى والانسانى يسميه المحدثون المستوى NIVEAU ، وقد نعود إلى بحث هذه النقطة فيما بعد؛ والمسألة الثانية هى شرحه للأفق الانسانى بأنه يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التى يستعملها، يريد الحواس والمدركات الحسية ، ثم الصور التى تلائمها ، وهذه فى الواقع هى بالتقريب كل العمليات العقلية التى يتكون من مجموعها الذكاء كما قدمنا، وكما ذكر (بينيه) عندما أراد قياس الذكاء .

ثم يقول فى موضع آخر ، وهنا يطابق رأى ابن أبى ربيع ، ولو أنه ليس واضحاً وضوحه، ويطابق الرأى الذى نذهب إليه من أن الذكاء هو التصرف فيقول: «وأواخر الزنج وأشباههم

(١) كتاب سلوك المالك فى تدبير الممالك لشهاب الدين بن ابى ربيع ـ طبعة الكردى بمصر ص ٤٢ و ٤٣
(٢) يريد بالعقل الذكاء .
(٣) تهذيب الاخلاق لابن مسكويه ـــ طبعة الكردى ١٣٢٩هـ ص ٨٣ و ٨٤

قبل أن يستعمل القرد العصا يجب عليه أن يبنى مرتفعا من الصناديق، يضعها تحت الشيء الذى يقصده ، حتى يستطيع الوصول إليه.

من الأمم التى لاتميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة ، ثم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط الأقاليم، فيحدث فيهم الذكاء، وسرعة الفهم ، والقبول للفضائل، وإلى هذا الموضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات، ثم يستعد بهذا القبول لاكتساب الفضائل واقتنائها بالارادة والسعى والاجتهاد »

بهذا الرأى عن الذكاء، وهو وجود مشكلة يحاول الانسان حلها ، وبقدر توفيقه فى الحل يكون ذكاؤه، نستطيع القول بأن الحيوانات الراقية عندها ذكاء ، ونستطيع من ناحية أخرى معرفة مدى هذا الذكاء بملاحظتها ملاحظة خارجية عند تحقيق بعض الأعمال، طالما كنا لانستطيع أن ننفذ إلى عقل الحيوان ومعرفة مايدور بخلده؛ وقد يقول قائل: إن أعمال الحيوان التى ندعى أنها نتيجة الذكاء، إن هى إلا أعمال غريزية لادخل للعقل فيها، ولاسلطان له عليها، أو هى نتيجة التجربة وحذف الأخطاء ESSAIS ET EREURS ولذا وجبت التفرقة بينها.

فالأعمال الغريزية هى سلوك فطرى أمام مؤثر خارجى ، وهذا السلوك نوعى أى عام فى جميع أفراد النوع، ولا يتغير بتاتاً أمام هذا المؤثر الواحد ، بينما أعمال الذكاء هى على العكس من ذلك : غير موروثة، وشخصية، ومرنة، وتصدر عند مؤثر أو موقف جديد يتغير غير ثابت. يجب إذن إذا أردت مشاهدة ذكاء الحيوان أن تدفعه إلى موقف لم يسبق أن وقفه ، ولم يسبق له أن تصرف فيه وسلكه، ثم ترى ما ذا يفعل ؟ وهذا ما عمله العالم الألمانى (كوهلر) فى تجاربه على القرود الراقية المسماة «الشمبانزى» والتى أودعها كتابه «عقلية القرود» ويعتبر كتابه هذا حجة لكل من أراد الاطلاع على عقلية الحيوانات ممثلة فى أرقاها وهى القرود .

ولننقل ما يقوله (كوهلر) فى هذا الصدد : « إذا قدمت إلى قرد غذاءه، فانه ينحو إليه الطريق العادى : الخط المستقيم ، فاذا اعترض الطريق عقبات مختلفة الأنواع والأحجام كان عليه أن يجد لنفسه مخرجاً ؛ إنك لاتجد أى قرد يضطرب أمام العثرات المعقدة التى تصعب على الكلب أو القط، وتكون أكثر صعوبة بالنسبة لفرخة؛ لنفرض إذن أن هذه العقبة كأداء لايستطيع أن يتخطاها، ولكن الهدف (ليكن أى نوع من المأكولات أو الفاكهة) مربوط بخيط طرفه فى متناول الحيوان ، تجد القرد يعرف كيف يستعمله ليجذب الهدف الذى هو فى دائرة بصره، بينما يعسر على الكلب هذا العمل، مع عدم وجود أى عائق فسيولوجى يمنعه من ذلك .

والآن إذا كانت هذه الآلة ـ التى تستعمل فى الوصول إلى الهدف غير متصلة بالهدف وكانت عصا يجب استعمالها للوصول إلى الغرض، فانك تجد أن أى قرد منحط لا يستطيع استعمالها، مع أنه يستطيع إمساك العصا بيده، إنه يسحب العصا إذا مارآها متصلة بالشىء، ولكنه لايستطيع أن يعيد هذا الاتصال المنفصم بل لايحاوله ، وعلى العكس من هذا يستعمل الشمبانزى العصا كما يفعل الانسان .

فاذا تعقدت المسألة أكثر من هذا ، فوضع الهدف فى صندوق مفتوح من أعلاه ومن الجانب المضاد للقفص ، كان على القرد للحصول على الهدف أن يدفعه ، وأن يبعده عنه، حتى يخرجه من هذا السوار إذا ما ضرب حائط الصندوق العرضى ، فالغاية النهائية هى تقريب الشىء ، والوسيلة أو الغرض الثانوى هو إخراجه من السوار المحيط به بابعاده ، فهذا العمل الثانوى لامعنى له فى ذاته إلا بالنسبة للعمل الرئيسى،ثم هو فوق ذلك يجبر الحيوان على أن يغالب النزعة الطبيعية لتقريب الشىء منه ؛ فأذ كياء الشمبانزى وحدهم هم الذين ينتجون حلا صحيحاً لهذه المشكلة».

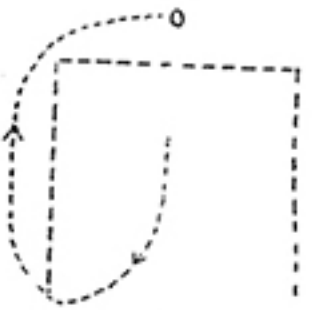

سور
يجب أن يلف حوله

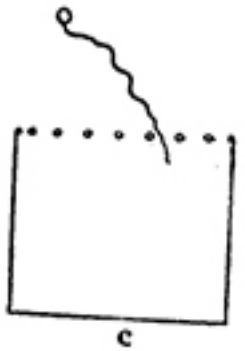

قفص ذو قضبان
والهدف مربوط بالخيط

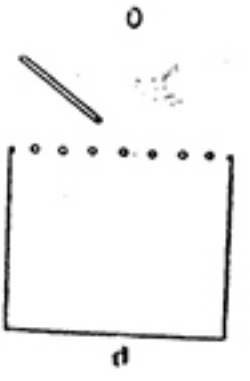

مشكلة استعمال العصا

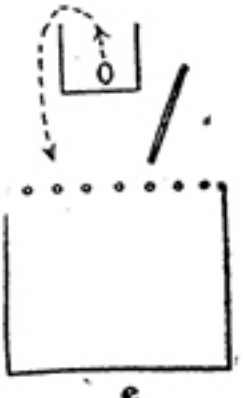

يجب أن يبعد الشىء عنه
مع استعمال العصا

جميع هذه المواقف الصناعية جديدة على الحيوان وتتطلب من ناحيته ابتكارا يجب أن تتوقف تضاعيفه على الظروف .

فأنت ترى من الأمثلة السابقة أن تصرف الحيوان فيها هو نتيجة الذكاء لأنه خاص ببعض الأفراد دون النوع، لأنه تصرف فى حل مشكلة جديدة وغير ثابتة ، فهو تصرف غير غريزى .

أحمد فؤاد الاهوانى